إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات فبراير ٢٠٢٣م

الصمت

"الصمت هو سر الدهر الآتي، لكن الكلمات هي أدوات هذا العالم". هكذا يعلم القديس إسحاق السرياني. عندما سأل الآباء الأنبا أرسينيوس لماذا تهرب منا، أجاب الشيخ: "يعلم الله أني أحبكم جميعاً، لكنني لا أستطيع التحدث معكم ومع الله في نفس الوقت". لذلك يعلمنا الآباء أن الهدف الرئيسي من الصمت ليس فقط غياب الصوت، ولكننا نحافظ على الصمت من أجل إجراء حوار داخلي مع الله.

أحبب الصمت فوق كل شيء، لأنه يقربك من الثمرة التي لا يستطيع اللسان التعبير عنها. دعونا أولاً نجبر أنفسنا على الصمت، ثم من هذا الصمت يولد شيء يقودنا إلى الصمت نفسه. قد يمنحك الله أن تدرك جزءاً مما يولد من الصمت! إذا بدأت بهذا الانضباط فأنا لا أعرف مقدار النور الذي سيأتي عليك منه. لا تستنتج يا أخي مما يقال عن ذلك الرجل العجيب أرسانيوس أنه عندما يزوره الآباء ويأتي الإخوة لرؤيته، ويجلس معهم ويسكتون، وفي صمت يدعهم يذهبون لا تستنتج أنه فعل ذلك طواعية تماماً ، بإستثناء في البداية عندما كان يجبر نفسه على ذلك. بعد وقت، تولد حلاوة معينة في القلب من ممارسة هذا المخاض، وتقود الجسم بالقوة إلى المثابرة في السكون. يولد لنا كمية كبيرة من الدموع في هذا الانضباط من خلال رؤية إلهية رائعة لشيء يدركه القلب بوضوح، أحيانا بألم، وأحيانا بدهشة. لأن القلب يتواضع ويصبح مثل طفل صغير، وبمجرد أن تبدأ في الصلاة، تتدفق الدموع قبل صلاتها.

عندما تضع كل أعمال هذا الانضباط على جانب واحد والصمت من جهة أخرى، ستجد أن الأخير أكبر في الوزن. تحذيرات الآباء كثيرة. عندما يقترب الرجل من الصمت، فإن الاحتفاظ بالأعمال لا يكون له لزوم، وتصبح هي نفسها غير ضرورية. فالصمت يتجاوز الأعمال، لأنه يقترب من الكمال. الصمت هو أيضا مساعدة للسكون.

يحذرنا القديس يوحنا الدرجي من الثرثرة، والثرثرة هي عرش المجد الباطل الذي تحب أن تتأنق فيه وتتباهى به. الثرثرة هي علامة على الجهل، ومدخل للافتراء، وقائد للمزاح، وخادم للأكاذيب، وخراب الضمير، ومستدعي اليأس، ورسول النوم، وتبديد التذكر، ونهاية اليقظة، وتبريد الحماس، وظلمة الصلاة. الصمت الذكي هو أم الصلاة، والتحرر من العبودية، وحارس الغيرة، وحارس أفكارنا، وسهر على أعدائنا، وسجن للحزن، وصديق للدموع، وتذكر أكيد للموت، ورسام للعقاب، واهتمام بالدينونة، وخادم للألم، ورفيق السكون ، ونمو المعرفة، ويد لتشكيل التأمل، وتقدم خفي، ورحلة سرية إلى أعلى.

لأن الرجل الذي يدرك خطاياه قد سيطر على لسانه، في حين أن الثرثار لم يكتشف نفسه بعد كما ينبغي. محب الصمت يقترب من الله. يتحدث إليه سراً والله يعطيه استنارة. يسوع، بصمته، أخجل بيلاطس. والرجل، بسكونه، ينتصر على المجد الباطل. بكى بطرس بمرارة على ما قاله. لقد نسي الذي قال: "قلت: أحفظ طرقي حتى لا

أخطئ بلساني" (مزمور ٣٨: ١). لقد نسي أيضا القول: "من الأفضل أن تسقط من ارتفاع إلى الأرض من أن تنزلق باللسان". (سي ٢٠:٢٠)

لغة القلب هي الصمت - ليس صمتاً كئيباً فارغاً، بل صمتاً عميقاً وذا مغزى يغني مجد الله بلا توقف. الصمت يولد السكون، ومن الآن فصاعداً، يا إخوتي، دعوا قلبكم يحسب السكون أعظم من أي طريقة أخرى للحياة. لأنه من خلال البقاء المستمر في السكون، يتم إماتة الأفكار المتجولة جنباً إلى جنب مع الذكريات الفارغة والعواطف القاتلة، لأن الثبات المستمر في حد ذاته يجعل العقل أقوى من أي شيء آخر. وهكذا، فإنه يهزم الأفكار بقوة، ويدمر ذاكرة الغضب، ويميت المشاعر من خلال الصبر، في حين أن هذه الأشياء بالذات هي خراب العقل وموت الإنسان الحقيقي. لا يوجد شيء يدمرهم مثل سلاح السكون المرتبط ببناء التعليم في معرفة الحقيقة. لأنه من خلال المعرفة تنفصل الأهواء والخطايا والأفكار الباطلة (سواء تلك الخاصة بالجسد أو أفكار الروح) عن النفس.

لقد وجد إيليا أن الرب لم يكن في الزوبعة ولا في الزلازل ولا في النار، بل في الصوت الذي لا يزال خافتاً. في صمت كلمه الله. تعلم إشعياء أنه: "بالهدوء والسكون تكون قوتكم". يتحد القديسون والنساك في كل عصر في الشهادة بأن الصمت هو شرط لا غنى عنه للمعرفة الروحية، وأنه بدونه لا يمكننا أن ندعو أرواحنا ملكاً لنا، وأن "الإنسان لا يرى نفسه في الماء الجاري بل في الماء الراكد". هذه الحقائق الروحية لا تصرخ ولكن الله ينتظر في أعماق كياننا أن يتحدث إلينا إذا أردنا فقط "غسل نفوسنا بالصمت". "الصمت"، يكتب القديس يوحنا السلمي، "هو أم الصلاة. صعود مستمر إلى السماء. "الفم الصامت يفسر أسرار الله، لذلك دعونا نحب الصمت لأنه فيه ستكون لنا حياة في نفوسنا.